للفرنسيين او الانجليز او السلافيين (٣) وبالنسبة للالمان بوجـــه اخص ٠ واصبحت القومية والوطنية هما الشغل الشاغل للجميع ، تتجسد في العادات والتقاليد الشعبية ، وفي اللغة ، قبل كل شيء التي تربط الامة وتحفظ تراثهـا وتحمل روحهـا وتاريخها ٠

وقد تحولت الرومنسية كما ذكرنا مع العصر لتعكس كل البلبلة وصـــراع الايديولوجيات في ذلك الزمان المضطرب ، فقد جمعت في السياسة بين خليـط مشوش من الافكار التقدمية والرجعية ، والثورية والمحافظة ، اختلط فيهـــا السعي الانفعالي نحو الحرية العاطفية وخيبة الامل في العقل الانساني ٠ تصدت لمؤسسات البورجوازية ومعتقداتها واعتبرتها مؤسسات مصطنعة ، وبدت عقلية البورجوازي واخلاقياته في أعينها كئيبة ، ولكنها من جهة اخرى وقفت ضـد الراديكالية في الاقتصاد والسياسة لانها في نظرها تفسد روح الفرد بالتركيـز على الكتل والجماهير (٤) ٠ وبعد فشل انتفاضات سنة ١٨٤٨ حدث التحـول الكبير في اواسط القرن في اتجاه الردة والمحافظـــة ٠ ووقفت الحركـــة الرومانسية بشكل عام في صف الرجعية والقوى المحافظة ٠ فقد تحول الكثيرون من الليبراليين الديموقراطيين بتأثير الهزائم المفجعة لحركة الثورة في اوروبا، الى قوميين محافظين ٠ وتقدمت قضية الوحدة القومية لتحتل مركز الاهتمام الاول على حساب قضية الحرية والديموقراطية في بعض الاحيان ، كما حدث في المانيا البسماركية ٠ واتجهت بعض المذاهب الرومنسية الى عبادة الدولة ذاتها ، بصرف النظر عن طبيعة الحكم او السلطة فيها ٠ وفي انجلترا كانت الرومنسية من عوامل دعم الاتجاهات المحافظة ممثلة في دزرائيلي (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) وحزب التوري (المحافظين) ، وكان هذا الحزب يدعو الى نوع من الاصلاح الاجتماعي ، وتحسين حال الجماهير ، من خلال التعاطف والمحبـــة واحياء نماذج العصور الوسطى في التنظيم الاجتماعي ، خاصة في « الجلد » الذي اصبح رمزا للانسجام والتآلف بين أرباب المهنة واتباعهـــا ٠ وروجت الرجعية لدعاوى التعاون بين العمال واصحاب الاعمال والسلام الاجتماعي ، وكانت رؤى الرومنسيين الرجعيين مما ينسجم وهذا الاتجاه ، في نزوعهم نحو الماضي والسلام المفقود ، وحياة الهدوء في جنة الفلاح البسيط الراضي وصور الفروسية والشهامة والحب في الماضي الغابر ٠ كانوا يبحثون عن طريق لا هو بالبرلماني المقيت ولا الراديكالي الاشتراكي (٥) ٠ طريق بين هذا وذاك ينهـي الخلافات ويطرح الصراع والتوتر ، فانتهى بهم المطاف الى دعم الحكومـــات الاستبدادية والرجعية التي تكبت حركة الجماهير وتخمد صوت الطبقة العاملة، التي كانت قد بدأت تتبلور وتستقطب وتعي ذاتها كطبقة في هذه المرحلة ، وجاء الاحياء الديني المسيحي والكاثوليكي بوجه الخصوص، في هذا الجو الرومنسي السائد ، ليدعم مفاهيم التعاون والتعاطف والحب بالمضمون السلفي ، وفـــي